مثله على مذهب امام من الائمة الاربعة خير من الاستمرار على الجهل لانه ليس لمن التمذهب سوى الاسم والاقامة على الجهل نقص عظيم في المؤمن وقل أن تصح منه عبادة قال الجلال السيوطي وأظن أن هذا هو السبب في تحول الطحاوي حنفيا بعد أن كان شافعيا فانه كان يقرأ على خاله الامام المزني فتعسر عليه الفهم فخاف المزني أنه لا يجيء منه شيء فانتقل الى مذهب الامام أبي حنيفة ففتح الله تعالى عليه وصنف كتابا عظيما شرح فيه المعاني والآثار وكان يقول لو عاش خالي ورآني اليوم لكفر عن يمينه انتهى سادسها أن يكون انتقاله لا لغرض دنيوي ولا دنيوي بان كان مجردا عن القصدين جميعا فهذا يجوز للعامي أما الفقيه فيكره له أو يمنع منه لانه قد حصل فقه ذلك المذهب الاول ويحتاج الى زمن آخر ليحصل فيه فقه المذهب الآخر فيشغله ذلك عن الامر الذي هو العمل بما تعلمه قبل ذلك وقد يموت قبل تحصيل مقصوده من المذهب الآخر فالاولى لمثل هذا ترك ذلك انتهى كلام الجلال السيوطي بتصرف (من كتاب القول السديد)

(الباب الثاني في الاحاديث والحكم)

(في السودد والمروءة ومكارم الاخلاق ومداراة الناس والتأدب معهم في حالي الغنى والاملاق)

اعلم أنه يجب على الانسان أن يتخلق بالاخلاق الموجبة للسيادة ويعتني في طلب المكارم والمجادة وأن لا يتشاغل عنها بسواها ولا يصرف همته الى ما عداها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرع به عمله لم يبطئ به حسبه ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه قال حكيم لحكيم ما السودد قال اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف قال كف الاذى وبذل الندى قال فما السناء قال استعمال الادب ورعاية الحسب قال فما المجد قال احتمال المغارم وابتناء المكارم قال فما المروءة قال عرفان الحق وتعاهد الصنيعة قال فما السماحة قال حب السائل وبذل النائل قال فما الكرم قال صدق الاخاء في الشدة والرخاء قال بعض العلماء الكرم هو اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل فكل خصلة من خصال الخير وخلة من خلال البر وشيمة تعزى الى مكارم الاخلاق وسجية تضاف الى محاسن الطبائع والاعراق فهي واقعة على اسم الكرم فالكرم أبدا واقع على كل فعل من الافعال المرضية لازم لكل حال من الاحوال الجليلة السنية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الاخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة وهي صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان واعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الامانة وصلة الرحم والتذمم للصاحب وقرى الضيف وأسخى الحياء ومن المنقول عن الحكماء الواجب على ذي النسب الشريف

والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سببا الى التوانى عن الاعمال الموافقة لنسبه والاتكال على آبائه فان أشرف الانساب يحض على أفضل الاعمال والشريف بحسبه أولى ان كان الشرف يدعو الى الشرف كما أن الحسن يدعو الى الحسن وأكثر الممدوحين انما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم وقد قال الشاعر فى هاشم بن عبد مناف وهو امام ذوى الانساب

عمرو الذى هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

فمدحه بفعله وان كان شريفا فيما واعلم أن الناس أشد تحفظا على السيد الشريف فى قومه وأكثر اجتلاء لافعاله وتصفحا لاخلاقه وتتبعا عن خصاله منهم عن خامل لا يعبأ به وساقط لا يكترث اليه فيسير عيب الرجل الجليل يقدح فيه وصغير الذنب يكبر منه قال بعضهم وشرف الوالد جزء من ميراثه منتقل الى ولده كانتقال ماله فان رعى وحرس ثبت وازداد وان أهمل وضيع هلك وباد وكذلك شرف الولد يعم القبيلة وللوالد منه الحظ الاكبر والقسم الاوفر قال أبو على حسن بن رشيق والذى يتبع عليه الاختيار عندهم قول المتوكل الليثى

انا وان أحسابنا كرمت * لسنا على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقول عامر بن الطفيل

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمقنب

وأنشد أبو حيان للمنصور أبى عامر محمد بن عامر المعافرى

وانى لمقتاد الجيوش الى الوغى * اسودا تلاقيها اسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة * وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة * على ما بنى عبد الملك وعامر
رفعنا المعالى بالعوالى حديثة * وأورثناها فى القديم معافر

ومن بديع الافتخار بالسودد وحفظه قول السموأل بن عاديا

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا * اناث أصابت حلمنا وبعول
علونا الى خير الظهور وحطنا * لوقت الى خير البطون نزول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

قال أبو على حسن بن رشيق وقد أنكر قدامة أن يمدح الانسان بآبائه دون أن يكون ممدوحا بنفسه قال والذى ذهب اليه حسن وأنكر الجرجانى على ابى الطيب المتنبى قوله

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي * وبنفسي فخرت لا بجدودي

قال وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ويغض من نسبه ويحقر من شأن سلفه وانما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفا به فيجعل لكل منهم في الفخر حظا وفي المدح نصيبا قلت واذا كان هذا لا يجمل ولا يحسن في الشعر ويعد نقصا في معناه وهو من قبيل المجازات والتخيلات فكيف يجمل بالعاقل أن يرتضي ذلك حقيقة في ذاته ويهمل تأديب نفسه ويدع اكتساب المحامد واقتناء المكارم اتكالا على حسب آبائه واعتمادا على كرم أسلافه ولو لم يسع آباؤه في طلب المجد وكانوا كسالى عن ذلك لم يكن له بهم فخر ولا سما لهم ذكر قال

وما المرء الا حيث يجعل نفسه * ففي صالح الاخلاق نفسك فاجعل

وقال بعضهم

تزين الفتى أخلاقه وتشينه * وتذكر أفعال الفتى حيث لا يدرى

فالافعال المحمودة والاخلاق الجميلة توجب السودد والرئاسة والافعال المذمومة والاخلاق الدنيه تمنع من ذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالي الاخلاق ويكره سفسافها قال الامام أبو بكر الطرطوشي واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وماضا ذلك من قبح المثالب وفحش الرذائل كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن ما يكون فيحك أقبح قلت فيجب على المرء أن يجهد نفسه في الاقتداء بصالح سلفه ويرغب في الاعمال اللائقة بمجده وشرفه وينافس في المعالي ويسارع الى المكارم ليحفظ مزية آبائه الرفيعة لا أن يجعل تلك المزية للتقصير ذريعة قال أبو الطيب

ولم أر في عيوب الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام

وقال ابن المعلى لابنه تشبه بأهل الفضل تكن منهم وتصنع للشرف تدركه واعلم أن كل امرئ حيث يضع نفسه وحسبك الحديث الوارد من تشبه بقوم فهو منهم قال بعضهم اعلموا أن مجدكم الذي بناه آباؤكم متى لم تمروه بافعالكم خرب وذهب قال الشاعر

المجد ان خان التليد طريفه * للمدعي خرابه خوان

حسب الفتى عار به أن لا يرى * الا بذكر قديمه يزدان

وكفاه نبلا أن يكون لذاته * ان شال وزن قديمه رجحان

وأتم ذلك مفخرا ما طابقت * في طهن أرومها الاغصان

قال الامام أبو بكر بن أبي جمرة وما أجدر بالاولاد الاقتداء بالآباء والاجداد اذ الشرف والمجد لا يكونان الا بالآباء يقال رجل شريف ورجل ماجد اذا كان له آباء متقدمون في الشرف

وأما الحسب والكرم فيكونان فى الرجل وان لم يكن له آباء كرام لهم شرف يقال رجل حسيب ورجل كريم بنفسه فينبغى للرجل أن يطلب خلال آبائه المحمودة ويتبعها ويتعلمها ويعلمها والاصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ارموا يا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا واذا كان هذا فى الرمى فما ظنك بغيره قال الله تعالى حاكيا عن الكريم ابن الكريم واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب وعلى الجملة ففى معارج النطف على مدارج السلف فخر الشرف وذلك معتبر فى النسب عند العجم والعرب وفى الخبر المرفوع من نعمة الله على الرجل أن يشبه والده ذكر أبو عثمان الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين أن عمرو بن سعيد دخل على معاوية بعد موت أبيه وعمرو يومئذ غلام فقال له معاوية الى من أوصى بك أبوك يا عمرو قال ان أبى أوصى الى ولم يوص بى فقال بأى شئ أوصاك قال أوصانى أن لا يفقد اخوانه منه الا شخصه فقال معاوية لاصحابه ان ابن سعيد هذا لأشرف قال مسلم بن الوليد

واذا جهلت من امرئ أعراقه * وقديمه فانظر الى ما يصنع

وقال ابن الرومى

اذا شئت تعرف أصل الفتى * أجل لحظ طرفك فى منظره
فان لم يبن لك فانظر الى * أفاعيله فهى من جوهره
وان غاب عنك بهذا وذا * فلا تطلبن سوى محضره
فان المحاضر سبر الرجال * بها يعرف النذل من مخبره
بلوت الرجال وأخبارهم * فكل يعود الى عنصره

وقال أبو الفتح كشاجم

واذا افتخرت باعظم مقبورة * فالناس بين مكذب ومصدق
فأقم بنفسك لا تقم بك شاهدا * بحديث مجدك القديم محقق

قال بعض الحكماء من جمع الى شرف أصله شرف نفسه فقد استدعى الفضل بالحجة ومن أغفل نفسه واعتمد على شرف آبائه فقد عقهم واستحق ان لا يقدموه على غيرهم والافتخار نوعان فخر الانسان بنفسه وفخره بسلفه والكمال فى الجمع بين الامرين قال الشاعر

ما السودد المكسوب الا دون ما * يوهى اليه السودد الموروث
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة * بلغت من العلياء كل مكان

أما فخر الانسان بنفسه فهو الذى تسميه العرب الظهارجى يريدون أنه خرج من أولية كانت له قال كثير فى الظهارجى

أبامروان لست بخارجيّ * وليس قديم مجدك بانتحال

وكل من كان لخارجية ليس له قديم قيل له عصامى وكذلك من يفخر بالآباء وليس بشريف فى نفسه يقال له عظامى ولذلك قالوا كن عصاميا لا عظاميا أى افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم قلت وهذا ترغيب فى الافعال الحميدة والاخلاق الجميلة وهو الذى أراد أبو الطيب بقوله

ولست بقانع من كل فضل * بان أعزى الى جدهمام

وآنف من أخى لابى وأمى * اذا ما لم أجده من الكرام

وعصام المذكور هو عصام بن شهير حاجب النعمان الذى يقول فيه النابغة الذبيانى

فانى لا ألام على دخول * ولكن ما رأى لك يا عصام

وقيل فيه

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما

* وجعلته ملكا همام *

أى انه انما شرف بهمته وقدره لا بقديم كان له قال المأمون لرجل سمعه يفخر بنسبه أنت عظامى لا عصامى أراد المأمون قول الشاعر * نفس عصام سودت عصاما *

وقول الآخر

اذا ما الحى عاش بعظم ميت * فذاك العظم حى وهو ميت

ومن وصية الرشيد للمأمون لا تتكل على أن تقول كان أبى الرشيد واعمل على ما يتكل عليه من يقول كان أبى المأمون وذكر أبو عثمان الجاحظ أن زياد بن ظبيان التميمى قال لابنه عبيد الله ابن زياد وزياد يومئذ يجود بنفسه وعبيد الله غلام يا بنى ألا أوصى بك الامير قال لا قال ولم قال اذا لم يكن للحى الا وصية الميت فالحى هو الميت قال أبو العباس المبرد فى كتاب الكامل قال الكلبى قال لى خالد بن عبد الله القشيرى ما تعدون للسودد فقلت أما فى الجاهلية فالرياسة وأما فى الاسلام فالولاية وخير من ذا وذاك التقوى فقال لى صدقت كان أبى يقول لم يدرك الاول الشرف الا بالفعل ولا يدركه الآخر الا بما أدركه به الاول وانتسب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ عشرة آباء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حسب الا بالتواضع ولا نسب الا بالتقوى ولا عمل الا بالنية ولا عبادة الا باليقين قال الشاعر

لعمرك ما الانسان الا بدينه * فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الاسلام سلمان فارس * وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب

وقال الراعى

لم أجد عروة الخلائق الا الـــــدين لما اختبرت والحسبا

وقال منصور الفقيه

اذا جمع الفتى حسبا ودينا * فلا تعـــدل به أبدا قرينا

قال أبو عمرو بن العلاء كان أهل الجاهلية لا يسودون الا من كانت فيه ست خصال وتمامها في الاسلام سابغة السخاء والنجدة والصبر والحلم والبيان والحسب وفي الاسلام زيادة العفاف وقيل لقيس ابن عاصم بم سودك قومك قال بكف الاذى وبذل الندى ونصرة المولى قال وجيه الدين أبو المطاع ابن حمدان

ومايدعى باسم السيادة سيد * اذا لم تكن فيه خلائق أربع
يحن الى العليا ويغضى على القذى * ويسخو بما تحوى يداه ويشجع

وقال الاشعث بن قيس يوما لقومه انما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم لكني أبسط لكم وجهي وأبذل لكم مالي وأقضي حقوقكم وأحوط حريمكم فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ومن زاد علي فهو خير مني ومن زدت عليه فانا خير منه قيل له يا أبا محمد مايدعوك الى هذا الكلام قال حضهم على مكارم الاخلاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ولما أتى صلى الله عليه وسلم بسبايا طي كانت في السبايا جارية جميلة فصيحة فقالت يارسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فان رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فاني بنت سيد قومي كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ولم يرد سائلا قط أنا بنت حاتم طي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه صفة المؤمن ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق ولما توفي عبد الله بن طاهر صلى عليه ابنه طاهر بن عبد الله ودفنه وأعتق عند كل زاوية من زوايا قبره رقبة من غلمانه وفعل ذلك اخوته ودفع كل رجل منهم الى كل غلام خمسمائة درهم وكان عبد الله بن طاهر قد خلف أربعين ولدا ذكرا فقال أبو العميثل الاعرابي الشاعر لمصعب بن عبد الله وكان يختص بطاهر وينادمه ألا أدلك على شيء تفعله فتتقدم به سائر اخوتك عند الامير طاهر قال بلى فانشده هذه الابيات وقال اكتب بها الى الامير

يا من يحاول أن تكون خلاله * كخلال عبد الله أنصت واسمع
فلأقصدنك بالنصيحة والذي * حج الحجيج اليه فاقبل أودع
ان كنت تطمع أن تحل محله * في المجد والشرف الاشم الارفع
فاصدق وعف وبر وانصر واحتمل * واحلم ودار وكاف واصبر واخشع

والطف ولن وتأن وارفق واتئد * واحزم وجدّ وحام واحمل وادفع
هذا الطريق الى المكارم مهيعا * فابصر فقد أسلكت قصدا المهيع

فاستحسن طاهر الابيات وقال والله لقد أفدتني ما يجب به شكرك عليّ فقلده نيسابور وأعمالها ثلاث سنين وأكسبه ألف ألف درهم وقد جمعت هذه الابيات خلال المكارم وموجبات السودد وتفاريق المروءة وكان سلم بن نوفل سيد كنانة فوثب رجل على ابنه وابن أخيه فجرحهما فأتي به اليه فقال له من آمنك من انتقامي قال ما سودنا الا أن نكظم الغيظ ونعفو عن الزلة ونحلم عن الجاهل ونحتمل المكروه قال صدقت وخلى سبيله وفي سلم هذا يقول الشاعر

نسود أقواما وليسوا بسادة * بل السيد المعلوم سلم بن نوفل

قيل لعرابة الاوسي بم سودك قومك قال باربع خلال أنخدع لهم في مالي وأذل لهم في عرضي ولا أحقر صغيرهم ولا أحسد كبيرهم وفي عرابة الاوسي يقول الشاعر

رأيت عرابة الاوسي يسمو * الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وقال بعضهم

ان السيادة فاعلمن مؤنة * لولا صعوبتها لسادا لرذل
ما كل من طلب السيادة نالها * ما نالها الا الجواد المفضل
يمسي ويصبح بالهموم موكلا * وأخو المكارم بالهموم موكل
وتراه من طلب المعالي ناحلا * وكذا لمن طلب المعالي ينحل

وقال أبو الطيب

اذا لم يكن للمرء فضل ولم يكن * يدافع عن اخوانه لم يسود
وكيف يسود الناس من كان دهره * بلا منة منه عليهم ولا يد

وكان أسماء بن خارجة الفزاري سيد أهل الكوفة فقال له يوما عبد الملك بن مروان ما أشياء تبلغني عنك يا أسماء فقال يحدثك غيري عني يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك وعلى ذلك فأحب ان أسمعها منك يا أسماء فقال ان تم يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط مخافة أن يرى أني تكبرت عليه ولا سألني رجل قط حاجة فكان أكبر همي من الدنيا الا قضاء حاجته ولا أكل رجل عندي قط أكلة الا كان له الفضل علي أيام حياتي ولا ظلمني رجل قط بمظلمة الا رأيت عقوبته العفو عنه فقال عبد الملك حسبك بهذا شرفا يا أسماء ثم أنشد عبد الملك يقول

اذا ما مات خارجة بن حصن * فلا مطرت على الارض السماء

ولا رجع الوفود بغنم عيش * ولا حملت على الطهر النساء
ليوم منك خير من أناس * كثير حولهم نعم وشاء
فبورك في بنيك وفي بنيهم * اذا ذكروا ونحن لك الفداء

وهذه الابيات لعبد الله بن الزبير الاسدى فى مدح أسماء بن خارجة المذكور ولها حكاية تتعلق بها ليس هذا الباب موضع ذكرها قال الشاعر

والابن ينشا على ما كان والده * ان العروق عليها ينبت الشجر

قال جميل بن معمر

أرى كل عود نابت فى أرومة * أبى منبت العيدان أن يتغيرا
بنو الصالحين الصالحون ومن يكن * لآباء صدق يلقهم حيث صيرا

وقال زهير بن أبى سلمى فى قصيدته التى مدح بها قوم سنان بن حارثة المرى

لأرتحان بالفجر ثم لأدأبن * الى الليل الا أن يعرجنى طفل
الى معشر لا يورث اللؤم جدهم * أصاغرهم بل كل مجد له نجل
فما يك من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى الا وشيجة * وتغرس الا فى منابتها النخل

وهذا البيت من أشرد مثل قيل فى شبه البنين بالآباء ان مجدا فمجد وان لؤما فلؤم

(فصل فى المروءة)

اعلم أن المروءة دالة على كرم الأعراق باعثة على مكارم الاخلاق وهى مراعاة الاحوال التى يكون الانسان على أفضلها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وقال عليه السلام لا دين لا بمروءة وقال عليه السلام المروءة فى الاسلام استحياء المرء من الله أولا ثم من نفسه آخرا قال ابن سلام حد المروءة رعى مساعى البر ورفع دواعى الضر والطهارة من جميع الادناس والتخلص من عوارض الالتباس حتى لا يتعلق بحاملها لوم ولا يلحق به ذم وما من شئ يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا الا وهو داخل تحت المروءة قيل لبعض الحكماء ما المروءة قال طهارة البدن والفعل الحسن وقال بعضهم من سلك المروءة سبيلا أصاب الى كل خير دليلا وسئل بعضهم أى الخلال أجمع للخير وأبعد من الشر وأحمد للعقبى فقال الجنوح الى التقوى والتحيز الى فئة المروءة وقال بعض العلماء اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة واتق مصارع الاخرى بالتعلق بحبل التقوى تفز بخير الدارين وتحل أرفع المنزلتين وقال بعضهم اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة قال الشاعر

كمال المروءة صدق الحديث * وستر القبيح عن الشامتينا

قيل للاحنف بن قيس ما المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رفع رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى جرم اقترفه فأراد معاقبته فاخبر أن له مروءة فقال استوهبوه من صاحبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن عقوبة ذى المروءة مالم تبلغ حدا واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وأسباب المروءة انما هى مرتبطة بشرف النفس وعلو الهمة اذا اجتمعا ولم يتفرقا قال بعض الحكماء المروءة تجبيه جبلت عليها النفوس الزكيه وشيم طبعت عليها الهمم العليه وضعفت عنها الطباع الدنيه فلم تطق حمل أشراطها السنيه وقال غيره لايدرك المروءة الا من حوى خصالها وجمع خلالها وفى ذلك يقول الشاعر

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فاضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

قال ابن عائشة القرشى لولا أن المروءة صعب محملها لما ترك الناس للكرام منها بيتة ليلة والمروءة وجوه وآداب لايحصرها عدد ولا حساب وقلما اجتمعت شروطها قط فى انسان ولا اكتملت وجوهها فى بشر فان كان ففى الانبياء صلوات الله عليهم دون سائرهم وأما الناس فيها فعلى مراتب بقدر ما أحرز كل واحد منهم من خصالها واحتوى عليه من خلالها قال بعض الحكماء لاتفارق الصبر فتعظم عليك البلوى ولا المروءة فتشمت بك الاعدا قال الشاعر

من فارق الصبر والمروه * أمكن من نفسه عدوه

قيل لعبد الملك بن مروان كان مصعب بن الزبير يشرب الطلا قال لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ماشربه قال الشاعر

أعف عن الامر القبيح تكرما * وان لم أكن حبرا ولا متخشعا
وأمنع نفسى ماتلذ وتشتهى * اذا أنا يوما خفت عينا ومقرعا
ولو خلت أن الماء يوما يشينني * لمت ولم أجرع من الماء مجرعا

قيل لسفيان بن عيينة قد استنبطت من القرآن كل شئ فاين المروءة فيه فقال فى قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ففيه المروءة وحسن الآداب ومكارم الاخلاق فجمع فى قوله خذ العفو صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل فى قوله وأمر بالعرف صلة الارحام وتقوى الله فى الحلال والحرام وغض الابصار

والاستعداد لدار القرار ودخل فى قوله وأعرض عن الجاهلين الحض على التخلق بالحلم والاعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة والاغبياء وغير ذلك من الاخلاق الحميدة والافعال الرشيدة وقال الله عز وجل حكاية عن قوم قارون وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض وفيها عين المروءة وحقيقتها وقال بهرام بن بهرام المروءة اسم جامع للمحاسن كلها وقال أنوشروان المروءة أن لا تعمل عملا فى السر تستحى منه فى العلانية وكان يحيى بن خالد يقول المروءة سعة المنزل وكثرة الخدم ووطاءة الفرش وطيب الرائحة والاحسان الى الحاشية والافضال على الاخوان وكان الحسن بن سهل يقول المروءة والشرف فى البشر ولا يصلح للصدر الا واسع الصدر وكان الفضل البلعمى يقول المروءة الجمع بين الدين والدنيا والتوقى من سخط الخالق وذم المخلوقين وكان عبد الله ابن أحمد بن يوسف يقول المروءة الكبرى اطعام الطعام ومجالسة الكرام وقال المهلب المروءة عشرة أجزاء تسعة منها فى المائدة وجزء منها فى سائر الاشياء وقال يحيى اذا أردت أن تنظر مروءة المرء فانظر الى مائدته فان كانت حسنة فاحكم له بالشرف وان رأيت تقصيرا فما وراءها خير وقال أبو منصور الثعالبى لا مروءة لمن لا يجتمع الاخوان على خوانه ولا تقع الاجفان على جفانه وقال بعضهم المروءة ادامة الاهداء وترك الاستهداء قال بعض السلف المروءة اصلاح المال وحسن التدبير وتعاهد الصنيعة والافضال على الاخوان وقال أبو منصور المروءة أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا قال مسلمة بن عبد الملك ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة قال الشاعر

اذا لم يكن فى منزل المرء حرة * مدبرة ضاعت مروءة داره

وسئل عبد الله الفارسى عنها فقال هى التألف والتظرف والتنظف وترك التكلف وأنشد أبو بكر الاسماعيلى

واذا جلست وكان مثلك قائما * فمن المروءة أن تقوم وان أبى
واذا اتكأت وكان مثلك جالسا * فمن المروءة أن تزيل المتكا
واذا ركبت وكان مثلك ماشيا * فمن المروءة أن مشيت كما مشى

قال الامام أبو الحسن الماوردى الفرق بين العقل والمروءة أن العقل يأمر بالانفع والمروءة تأمر بالأجمل ولا ينقاد للمروءة الا من سهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد ولذلك سيد القوم أشقاهم قال أبو الطيب

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وقال أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال المشاق علو الهمة وشرف النفس فعلو الهمة يبعث على التقدم وبشرف النفس يكون قبول التأديب والتهذيب وبه تعرف النفس قدرها وشروط المروءة وحقوقها الاتكاد تحصى لانتشارها وخفاء أكثرها ولكن الاظهر منها ينحصر في قسمين شروط مروءة المرء في نفسه وهي العفة والنزاهة والصيانة وشروط مروءة المرء في غيره وهي المعاونة والمياسرة والافضال

(العـــــفة)

وهي اما عن المحارم واما عن المآثم فالعفة عن المحارم ضبط الفرج وكف اللسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى والذبذب الفرج واللقلق اللسان والقبقب البطن وقال عليه السلام أحب العفاف الى الله عفاف البطن والفرج والعفة عن المآثم كالكف عن الظلم والخيانة والمكر ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله والباعث على الظلم الجرأة والقسوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر له ما اجترم وقال لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه اتق دعوة المظلوم فانه يسأل حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه والخيانة مما تعجل عقوبتها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقال خالد الربعي قرأت في بعض الكتب ان مما تعجل عقوبته الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس

(النزاهـــــة)

وهي اما عن المسامع الدنية أو عن مواقف الريبة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع وفي المعنى قال الشاعر

لا تضرعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على الطمع الشره وقلة الآنفة فلا يقنع بما أوتي ولا يستنكف مما منع وحسم الطمع باليأس والقناعة ومواقف الريبة التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك والمانع مما يريب الحياء والحذر وقد تنتفي الريبة بحسن الثقة وترتفع التهمة بطول الخبرة والاصلاح كما حكي أن بعض الحواريين رأى عيسى عليه السلام وقد خرج من منزل ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هنا قال الطبيب انما يداوي المرضى ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجده يحادثها وكان معتكفا فر بهما رجلان من الانصار فأسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله أيتخالجنا فيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من ابن آدم

مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلوبكما سوأ وقال صلى الله عليه وسلم اذا لم يشن المرء بما عمل فقد سعد قال أبو بكر الصولى

حسنت ظنى باهل دهرى * فحسن ظنى بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الامان

(الصيانة)

وهى اما بالاقتصاد أو بالاستغناء عن الناس أما الاقتصاد فلان المحتاج مهتضم ولكن لابد مما يسد الخلة وشروطه ثلاثة أحدها أخذه من حله الثانى عدم ابتذال العرض فيه لان العرض لا يبتذل فى كسبه الثالث حسن التدبير لان سوء التدبير فساد وقيل الكمال فى ثلاث الفقه فى الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة وما فضل من الكفاية مجابة للشغب والتعب وأما الاستغناء عن الناس فلان تحمل منن الناس ذل والاسترسال فى الاستعانة بهم تثقيل عليهم قال بعضهم من قبل صلتك فقد باع منك مروءته وأذل لك عزته وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه * وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك من وفرت ما فى كيسه * فاذا استعنت به فأنت ثقيل

ومن دعاه الى الاستعانة اضطرار أو ألم أو حادث هجم فلا لوم على مضطر وقد اقترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قضى فأحسن وقال من أعياه رزق الله حلالا فليستدن على الله ورسوله قال البحترى

ان لا يكن مال ففضل عطية * يبلغ بها باغى الرضى بعض الرضى
أو لا تكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

(المعاونة)

تكون بالجاه والمال والبدن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق كلهم عيال الله فأحب خلق الله اليه أحسنهم صنيعا لعياله وقال عليه السلام من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرض للزوال تلك النعمة وعلى المعاون التلقى بالبشر ومجانبة الامتنان وترك التعرض للتقريع بما كان وقال الشاعر

ألم تعلما أن الملامة نفعها * قليل اذا ما الشيء ولى فأدبرا

قال عليه السلام أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم قال عدى بن زيد

كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

وقال عليه السلام خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله والمعاونة واجبة للاهل والاخوان والجيران وتبرع لغيرهم

(المياســـــرة)

وهى العفو عن الهفوات والمسامحة فى الحقوق والواجبات فاما العفو عن الهفوات فشيمة أهل الفضل وعنوان ذوى العقل وقد قيل لاصديق لمن أراد صديقا لاعيب فيه وقيل لانوشروان هل من أحد لاعيب فيه قال من لاموت له قال أبو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا ويطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا * ويبريك فى السر برى القلم

والهفوات صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة لتعذر الاحتراس منها والكبائر منها ما يقع سهوا وهو هدر ومنها ما يقع عمدا فان كان مجازاة فاللائمة على البادى قال بعض الحكماء من نالته اساءتك همته مساءتك وان كان لكف عدو فالشر لا يطفأ الا بالشر وان كان اطفاؤه بالخير أولى قال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك وقال البحترى

فأقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

وان كان لكف اثيم كان التغافل أولى وقيل شرف الكريم تغافله عن اللئيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره قال ابن بقيلة

والخير والشر مقرونان فى قرن * فالخير متبع والشر محذور

وان كان تنكر امن صديق عولج بالاغضاء ويقال دواء المودة كثرة التعاهد قال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقصه * على سنن الطريق المستقيمه
ولا تسرع بعتبة اليه * فقد يهفو وينتبه سليمه

ومن الناس من يرى متاركته من تنكر كالعضو يقطع اذ فسد لان رغبتك فيمن يزهد فيك ذل وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة قيل للهلب بن أبى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت ومن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة وهو اما ملل أو زلل فالملل مودته صاحبه ظل غمام وحلم منام فيترك الملال فسيحل ويربح والزلل ينبغى أن يؤول كما فعل خالد بن صفوان وقد هرب به صديقان عرج أحدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال عرج الواحد لفضيلته وطوا نا الآخر لثقته فان لم يقبل الزلل تأويلا ووقع عليه ندم فالندم توبة ولا ذنب لتائب ولا يكلف التائب عذرا وقال عليه السلام اياكم والمعاذير فانها مفاجر

وقال علي رضي الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة ومن عجل العذر قبل توبته قبل عذره فالعذر توبة قال الشاعر

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا
واحلم عن الناس اذ ما كنت مقتدرا * فالسيد الحر من يعفو اذا قدرا

وتارك التوبة والاعتذار ان كف عن الاساءة فالكف احدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين وان استمر على اساءته فان أمكن استصلاحه استصلح والا فآخر الداء الكي ومن سل سيف البغي قتل به وأما المسامحة في الحقوق الواجبات فلان الاستقصاء منفر وذلك لقت الطباع لمن سامحها وحب من سامحها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها وقال عليه السلام ألا أدلكم على شئ يحبه الله ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن في الضعيف واشترى عمرو بن عبيد ازارا للحسن البصري وكان بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال التاجر انما ثمنه ستة ونصف قال هو لرجل لا يقاسم أخاه درهما والمسامحة في الاموال اسقاط وتخفيف وانظار وفي كلها حسن الثناء وجزيل الاجر قال محمود

المرء بعد الموت احدوثة * يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

(الافضال)

وهو اصطناع واستكفاف فاما الاصطناع فهو ما أعطاه المرء جودا الشكور أو تألف به نبوة نفور ومن قلت صنائعه في الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين بقي محقورا وفرد امهجورا قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ما طاوعني الناس على شئ أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعال

قال الاحنف ما ادخرت الآباء للابناء ولا أبقت الموتى للاحياء أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الاحساب وأما الاستكفاف فكل ما كف به لسان حاسد واستدفع به ضرر معاند وقال عليه الصلاة والسلام ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة وامتدح الزهري رجل فأعطاه قميصه فقيل له تعطي في مثل هذا فقال ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر وشرط عطاء الاستكفاف اخفاؤه

حتى لا يطمع فى مثله السفهاء وأن يظهر المعطى لما يعطيه وجها يقرن الاعطاء به وليغتنم المرء غناه وليأخذ من دنياه لآخرته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

(من كتاب عين الادب والسياسة وزين المكسب والرئاسة)

(الباب الثالث فى الاخلاق)

أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر لصاحبه وفضله ينمى لطالبه قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنفى المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى * لا ولا الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واستذلوا أهله وتوهموا أن ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز فى منثوره الحكيم العالم يعرف الجاهل لانه كان